# الأشياء تتداعى"" آليات التفكيك والسيطرة في رواية تشينوا أتشيبي

# The Colonizer's Mechanisms of Deconstructing and Dominating Nigerian Society in Chinua Achebe's *Things Fall Apart*

د. بلال العمر
د. فؤاد عبد المطلب
كلية الآداب – جامعة جرش
الهاشمية الأردنية

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة في رواية "الأشياء تتداعى"، بوصفها واحدة من أشهر الروايات العالمية التي كُتِبت على لسان المستعمَر، وذلك بغية الكشف عن آليات التفكيك والإخضاع والسيطرة التي انتهجها المستعمِر البريطاني إزاء المستعمَر النيجيري بشكل خاص، والإفريقي بشكل عام، والتي استطاع من خلالها تفكيك بنية المجتمع القبلي: دينياً وثقافياً، واجتماعياً، مما سهل على المستعمِر إحكام سيطرته على المستعمَر وإبقاءَه تابعاً له، دائراً في فلكه، لا انفكاك له عنه. ويستعرض البحث حياة أتشيبي وإنجازاته الأدبية بوصفه أحد مؤسسي الحركة الأدبية النيجيرية الجديدة التي تستمدّ ملامحها الأساسية من الثقافة المحلية الشفاهية التقليدية. ويشير إلى رواية "الأشياء تتداعى" التي نشرت عام 1959 ردّاً على السردية الإنجليزية لإفريقيا بوصفها عالماً بدائياً متخلفاً، مثل رواية جوزيف كونراد " قلب الظلام"، ولتصبح معلماً أدبياً بارزاً في روايات ما بعد الاستعمار. ويبين البحث في النهاية الآثار المأساوية لآليات تفكيك المجتمع النيجيري وإخضاعه كما رسمتها رواية "الأشياء تتداعى".

*كلمات مفتاحية: رواية تشينوا أتشيبي "الأشياء تتداعى"، آليات التفكيك والسيطرة، العلاقة بين المستعمِر البريطاني والمستعمَر النيجيري.

**Abstract**:

This article tries to introduce Chinua Achebe's novel *Things Fall Apart* (1959) as a world renowned novel reflecting the discourse of the colonized. Its main aim is to show the means used by the British Colonizer against the Nigerian Colonized subjects. Through these means, the colonizer managed to deconstruct tribal society: its religion, culture, and social constituents, in order to facilitate the process of controlling the colonized society.

The article begins with an outlook on Chinua Achebe's literary life and achievements as one of the founders of a new Nigerian literature movement that drew upon the traditional oral culture of its indigenous peoples. It refers to the novel as a response to British narrative of Africa as a primitive, backward world, for example, Joseph Conrad's *Hart of Darkness*. This is what made it a landmark of postcolonial literature. The article shows, at the end, the tragic effects of the colonizer's mechanism in deconstructing and dominating Nigerian society as reflected in the novel.

* Keywords: Chinua Achebe's *Things Fall Apart*, mechanism of deconstructing and dominating, the relation between the colonizer and colonized.

يدور ويدور في الحلقة المتسعة
ولا يستطيع الصقر سماع صياد الصقور؛
الأشياء تتداعى؛ المركز لا يستطيع التحمل؛
وتُطلق الفوضوية الشاملة على العالم.
– و. ب. ييتس، "المجيء الثاني"

ولد تشينوا أتشيبي في قرية أوغيدي الكبيرة في شرق نيجيريا عام 1930، وهي من أوائل القرى التي شهدت العمل التبشيري الأنجليكاني في تلك المنطقة. عمل والده هناك معلماً تبشيرياً في مدرسة الإرسالية البروتستنتية، حيث داوم تشينوا أتشيبي وتربى تربية مسيحية ورعة. انتسب أتشيبي إلى قبيلة الإبو وتعلم لغة الإغبو، وراح في سن الثامنة عشرة يتعلم اللغة الإنجليزية. سافر إلى بريطانيا كي يدرس في جامعة لندن، لكنه عاد إلى بلاده كي ينهي دراسته الجامعية الأولى في الكلية الجامعية، في إيبادان عام 1953. وفي أثناء دراسته الجامعية، التي قرأ فيها التاريخ والدين واللغة، انصب اهتمام أتشيبي على الثقافة النيجيرية المحلية، وقام بتغيير اسمه المسيحي من ألبرت تشينوا لوموغو أتشيبي إلى اسمه المحلي تشينوا.

عمل أتشيبي لسنوات في الإذاعة النيجيرية ليترك منصبه كمدير للإذاعة الخارجية عام 1966. وبعد حصول نيجيريا على استقلالها من بريطانيا عام 1963 بوقت قصير، اندلعت الحرب الأهلية وانقسمت الأمة قسمين. وما أن ترك مهنته الأولى، حتى التحق أتشيبي بوزارة الإعلام في إقليم بيافرا، الكيان الجديد الذي تشكل في شرق نيجيريا. وانتهت الحرب الأهلية الدموية، التي حصدت أرواح مليون إنسان وولّدت المجاعات والأوبئة، في العام 1970 بعد هزيمة إقليم بيافرا وانضمامه إلى نيجيريا من جديد. عُيّن وقتئذٍ زميلاً باحثاً أساسياً في جامعة نيجيريا، ببلدة نسوكا، وبدأ يحاضر على نطاق واسع خارج بلاده.

اشتغل أتشيبي من العام 1972 إلى 1976، ومرة ثانية من العام 1987 إلى العام 1988، أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة ماساتشوستس، ببلدة أمهرست، وكذلك لمدة عام واحد في جامعة كونكتيكت، ببلدة ستورز. وغالباً ما كان يُنظر إلى أتشيبي في الأوساط الأدبية بوصفه الروائي الأول في إفريقيا. وقد أشادت به جريدة الصنداي تايمز التي تصدر في لندن بكونه أحد "صانعي القرن العشرين الألف" لتحديده "أدباً إفريقيا حديثاً كان إفريقيا حقاً" ومقدماً بذلك "إسهاماً عظيماً إلى الأدب العالمي"، ونشر روايات وقصصاً قصيرة ومقالات وأشعاراً وكتب أطفال. كانت مجموعته الشعرية، عيد الميلاد في بيافرا، التي كتبها خلال الحرب في بيافرا، الفائز المشترك في أول جائزة لشعر الكومونولث. وفازت روايته سهم الله في العام 1965 بجائزة 'رجل الدولة الجديد – جون كامبل'، كما دخلت رواية كثبان النمل في السهل العشبي منافسة نهائية لجائزة البوكر عام 1987 في إنجلترا.

جرى تكريم تشينوا أتشيبي مرات عدة في مختلف أنحاء العالم، ومنها الزمالة الفخرية للأكاديمية الأمريكية ومعهد الفنون والآداب، بالإضافة إلى أكثر من عشرين دكتوراه فخرية من جامعات في إنجلترا وإسكتلندا والولايات المتحدة وكندا ونيجيريا. كما حاز أيضاً أعلى جائزة نيجيرية للإنجاز الفكري، وهي "جائزة الجدارة الوطنية النيجرية". ومن مؤلفات تشينوا أتشيبي أيضاً رواية مضى وقت الراحة (1962) ورواية رجل الشعب (1966)، وجُمعت قصصه في كتاب تحت عنوان: بنات في الحرب وقصص أخرى (1972). ومن أعماله غير القصصية: الآمال والعوائق: مقالات مختارة وكتاب المشكلة مع نيجيريا، ومن مجموعاته الشعرية أيضاً احذر يا أخا الروح. تعرّض أتشيبي إلى حادث سير في العام 1990 خارج العاصمة لاغوس وسبب له شللاً نصفياً. ومن ثَمّ عاد إلى نيويورك للتدريس، وزار نيجيريا في العام 1999 بعد غياب مقصود دام تسعة أعوام احتجاجاً على الحكم الديكتاتوري في البلاد، وأصبحت زيارته للبلد مناسبة وطنية. عاش

أتشيبي السنين الأخيرة من حياته مع زوجته في أناندال في نيويورك، حيث يدّرسان كلاهما في كلية بارد. وعندهما أربعة أولاد. وتوفي تشينوا أتشيبي بتاريخ 21 آذار/ مارس 2013 في مدينة بوسطن بولاية ماساتشوستس الأمريكية.

تدخل رواية أتشيبي الأشياء تتداعى فيما يُعرف بأدب ما بعد الاستعمار. وتُعنى نظرية ما بعد الاستعمار ببعدها النقدي بالهوية الثقافية للشعب المستعمَر في أعقاب رحيل الاستعمار، وأخلاق هذا الشعب وأوضاعه السياسية والمعرفة الناجمة من تعاقب أجيال هذا الشعب؛ كما تُعنى أيضاً بالطريقة التي طُبقت فيها المعرفة الثقافية الغربية لإخضاع الناس غير الأوروبيين في مستعمرات ما يسمى "البلد الأوروبي الأم"، التي تأثرت بعد فترة الاحتلال بالهويات الثقافية للشعوب المستعمَرة. وقد طوّر الشعب بعد التخلص من الاستعمار هوية ما بعد استعمارية من خلال تفاعلات بين أنماط مختلفة من الهوية، ثقافية ووطنية وعرقية وسياسية وطبقية، متأصلة في بنى المجتمع الاستعماري. وفي الأدب ما بعد الاستعماري طوّر الأشخاص الذين خضعوا للاستعمار قصصاً معادية للغزو الاستعماري ذات أبعاد اجتماعية وسياسية ومقاومة لثقافة المستعمِر. وقد أسهمت هذه القصص من خلال الدور الذي اضطلعت به في التأسيس لثقافة مقاومة اجتماعية، وللسبل التي طور بها المستعمِر كياناً ثقافياً ما بعد استعماري، وللطرق الجديدة التي استخدمها المستعمر على نحو نشيط في إيجاد علاقة الـ نحن والـ هم، وهي علاقة اجتماعية ثنائية نَظَرَ من خلالها إلى العالم الغربي بوصفه مسكوناً بالآخر. وقد حاول الخطاب الاستعماري الجديد في بعده الجغرافي – السياسي اختزال الشعوب، التي تخلصت من الاستعمار، وثقافاتها وبلدانها إلى أمكنة مُتخيَّلة تُدعى على أساس عنصري "العالم الثالث"، أو اقتصادي "البلدان النامية"، أو تِقني "البلدان المتخلفة". وتشير هذه التصنيفات، من خلال المصطلحات المستخدمة على سبيل عدم الدقة العلمية والاجتماعية إلى خصائص معينة لتنسحب بصورة كاملة على بلدان كثيرة وقارات مثل إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وتقوم حقيقة نظرية ما بعد الاستعمار بالزعزعة النقدية للأسس الفكرية واللغوية والاجتماعية والاقتصادية التي يروج لها المستعمِرون بغية تدعيم طرق التفكير الغربية التي يقوم بوساطتها بإدراك العالم وفهمه ومن ثَمَّ السيطرة عليه. وبهذا المعنى تفسح نظرية ما بعد الاستعمار المجال أمام أولئك الذين خضعوا للاستعمار في التعبير عن أنفسهم، للجهر بأصواتهم من أجل أن ينتجوا خطاباً ثقافياً وفلسفياً ولغوياً واجتماعياً واقتصادياً ليوازي العلاقات الثنائية للقوة غير المتوازنة بين الـ نحن والـ هم وبين الذوات المستعمِرة والذوات المستعمَرة. لذلك يُستخدم مصطلح ما بعد الاستعمار المعاصر أحياناً في أثناء الإشارة إلى الفترة الزمنية التالية لانتهاء الاستعمار العسكري والإداري، والذي ينطوي على إشكالية في تطبيقه، لأن الفترة السياسية التي أعقبت انتهاء الاستعمار مباشرة غير متضمنة في تصنيفات خطاب الهوية النقدي التي تدرس التمثيل الثقافي، فيأتي نقد ما بعد الاستعمار ليمثلها. ولهذا كان هذا المصطلح يشير إلى العالم الذي تخلص من الاستعمار ظاهرياً ولكنه ما زال عالماً يمثل حيزاً فكرياً مليئاً بالتناقضات والعمليات غير المنتهية ومن التفاعلات ولحظات التهجين.

يكمن في عمق التفكير الغربي الاستعماري أن بعض الثقافات وفي مقدمتها الأفريقية متخلفة أساساً، بمعنى أنها تتعثر في عملية تطورها حكماً وهي تحتاج إلى الإدارة المسيحية الأوروبية كي تقودها إلى النضوج الحضاري. وهدفت الدراسات ما بعد الاستعمارية إلى تفسير استمرار التأثيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية للاستعمار في الشعوب التي حكمتها "البلدان الأم" وأسباب مقاومتها. وباتجاه تحقيق هذا الهدف يحاول منظرو ما بعد الاستعمار إيجاد مجالات للشعوب غير الأوروبية وبخاصة التي كانت خاضعة لنظم الغرب الاستعماري التي كانت تعزز الأيديولوجية المهيمنة للمشروع الاستعماري، الذي سعى إلى "تحضير" السكان المحليين وجعلهم يعيشون بالطريقة الأوروبية. وفي هذا السياق، يصور الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي حياة السكان المحلين في المستعمرة البريطانية النيجيرية وردة فعلهم حيال هذه العملية.

وفي تعريف هوية ما بعد الاستعمار الوطنية وترسيخها، يبرز الأدب القصصي المعادي للغزو الاستعماري في أثناء تطبيق العملية الوطنية الهادفة لإزالة آثار الاستعمار، إذ يقوم الكتّاب بتحليل التجارب الشخصية والاجتماعية في مواجهة عملية الإخضاع الاستعمارية وتجاوز الهوية المفروضة من الذات الاستعمارية. كما يحاول كتّاب الشعوب المهمشة عبر الأدب ما بعد الاستعماري الرد على التشويه المقصود لإنسانيتهم، وتمثل رواية "الأشياء تتداعى" مثالاً إفريقيا حول التجربة النيجيرية في كونها جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. وباستخدامهم التنوعات المحلية للغات الاستعمارية، يحاول كتّاب القصص المعادية للغزو مخاطبة الهيمنة الثقافية للبلدان الأم"، من خلال توجيه الكتابة إلى مركز الإمبراطورية، ومن خلال إيجاد تواريخ وطنية تخدم تشكيل الهوية الوطنية وترسيخها بعد رحيل المستعمرين.

برز اسم أتشيبي في خمسينيات القرن الماضي بوصفه أحد مؤسسي الحركة الأدبية النيجيرية التي انصرف اهتمامها إلى التراث الشفاهي لتقاليد السكان المحليين النيجيريين. وقد اشتهر أتشيبي في بلدان عدة بكونه أباً للأدب النيجيري الحديث، وبخاصة حين كان يكتب المقالات ويدرس الأدب الإنجليزي في كلية بارد في نيويورك. وقد ظهرت إنجازاته الأدبية من خلال تميزه الواضح في الثقافة الجامعية النيجيرية ومن خلال مؤسساتها الأدبية والسياسية. أسهم أتشيبي في ذلك بعمله في الإذاعة والجامعة وبنشاطه الدؤوب في عملية النشر للكتّاب النيجيريين الجدد. وفي العام 1967، اشترك في تأسيس دار للنشر مع الشاعر النيجيري كريستوفر أوكيغبو، كما بدأ في العام 1971 بتحرير مجلة مرموقة تعنى بالكتابات النيجيرية اسمها "أوكيكي". وفي العام 1984، أسس أتشيبي مجلة ثنائية اللغة اعتنت بتفاصيل ثقافة الإغبو. اضطلع أتشيبي، بالإضافة إلى ذلك، بدور نشيط وبارز في السياسة النيجيرية خلال الستينيات، لذلك تناولت معظم رواياته القضايا الاجتماعية والسياسية ما بعد الاستعمارية التي ما زالت تشغل بال النيجيريين حتى الآن.

نشر أتشيبي رواية الأشياء تتداعى في العام 1959، فكانت أول رواية تصدر بالإنجليزية وتتحدث من داخل الشخصية والمجتمع الأفريقيين. جاءت الرواية بوصفها نوعاً من الرد على الروايات الغربية، مثل رواية جوزيف كونراد قلب الظلام التي تتعامل مع إفريقيا بوصفها مكاناً بدائياً يخلو من أية ثقافة، وتصور القارة الأفريقية من الخارج، كما يراه الرجل الأبيض، بوصفه غريباً في أطواره وعاداته. فقد بدا أتشيبي متعباً من قراءة كتابات الرجال البيض عن إفريقيا البدائية والمتخلفة اجتماعياً وثقافياً ولغوياً. هذه الكتابات التي تكرس المنظور الغربي لإفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بأنها غير متحضرة، وجحيم على الأرض، الناس فيها سواءً أكانوا سكاناً محليين أم أوروبيين يتصرفون بسلوك وحشي لأن ذلك ما تفرضه عليهم البيئة والمحيط والمجتمعات القبلية.

تُعدُّ الأشياء تتداعى من أكثر الروايات قراءة في بلدان عدة. وتدرس مشكلة الاستعمار في نيجيريا من خلال رصد الصدام الثقافي الذي يحدث بين الإرساليات التبشيرية وبين شعب الإبو، عندما يحضر الأوروبيون دينهم وطقوسهم وعاداتهم. يدرك أوكونكو، الشخصية الرئيسة، أبعاد الاستعمار الثقافي للرجال البيض بحسه الطبيعي، إذ يرى التداعي المتدرج للروابط بين أفراد القبيلة، هذا التداعي الذي يُسرّع وصول الرجال البيض وقوانينهم الجديدة، فيحاول أن ينبه أبناء قبيلته من الخطر الداهم للثقافة الوافدة التي ستدمر مجتمعهم إن تخلّوا عن أعرافهم ومعتقداتهم وعاداتهم. لذلك جهد أتشيبي في نقل فهم أوسع للثقافة الأفريقية فأعطى بذلك صوتاً لم يكن موجوداً للذات الأفريقية المستعمَرة والمستَغَلة.

تقع أحداث رواية الأشياء تتداعى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وتصور الصراع بين الحكم الاستعماري الأبيض في نيجيريا والثقافة التقليدية المحلية لشعب الإبو. وكما تحطم رواية أتشيبي الصورة النمطية التي رسمها الأوروبيون للأفارقة الوطنيين، فهي تحرص أيضاً على تصوير المؤسسات الاجتماعية المعقدة والمتوارثة والتقاليد الفنية ودقائق الحياة اليومية للسكان المحليين قبل احتكاكهم بالأوروبيين المستعمِرين. بيد أن المؤلف كان حريصاً على نحو مماثل ألا يقدم صورة نمطية لأولئك الرجال البيض، فقد صورهم بأشكال مختلفة، مثل السيد براون الورع، وسميث القس المتحمس، ومفوض المنطقة القاسي والحذر. وقد سمحت ثقافة أتشيبي وتعليمه الذي تلقاه بالإنجليزية

ومعرفته بالعادات الغربية أن يحوز النظرتين الأفريقية والأوروبية حيال التوسع، والدين، والعرق، واللغة، والثقافة الاستعمارية. وكان قراره بكتابة الأشياء تتداعى باللغة الإنجليزية أمراً بالغ الأهمية، فقد رمى من وراء ذلك إلى مواجهة الشروحات الاستعمارية لإفريقيا، فكان خياره بذلك خياراً سياسياً وثقافياً. وخلافاً لبعض الكتّاب الأفارقة ممن أتوا بعده وحاولوا إحياء لغاتهم الوطنية بكونها شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية للاستعمار، أراد أتشيبي أن يحرز إحياءً ثقافياً ضمن اللغة الإنجليزية ومن خلالها. ومع ذلك، فإن أتشيبي تمكن من الإحاطة بلغة الإغبو وإقحام مفرداتها على نحو مقنع فنياً في سردية الرواية.

يعالج أتشيبي في روايته أفكاراً أساسية وإنسانية عدة مثل الصراع بين المستعمِرين البريطانيين والسكان المحليين النيجيريين، وبين التغيير والحياة التقليدية، وبين الفرد ومجتمعه القبلي، وبين النزعة الذكورية المهيّمنة ونسوة القبيلة المغلوبات على أمرهن، واللغة بوصفها تعبيراً مختلفاً عن لغة المحتلين البيض. ومما يغني هذه الأفكار الصور والأدوات البلاغية والبنى الأدبية والرموز المتكررة للحيوانات والطيور والجراد والعَرافة والآلهة وممارسة الطقوس. كانت رواية الأشياء تتداعى أولى روايات أربع كتبها أتشيبي بين الأعوام 1958 و 1964. ويتمحور موضوعها حول وصول الرجل الأبيض في نهاية القرن التاسع عشر والأثر الذي تركه هذا الوصول في المجتمع القبلي المترابط على نحو وثيق لشعب الإبو، الذي سرعان ما تتقطع أوصاله. وإحدى الشخصيات المركزية في هذا المجتمع أوكونكو الذي يُكّنُ احتراماً كبيراً لأجداده وأعراف قبيلته ويرفض إظهار الضعف مهما كانت الأسباب. ففي لغة بسيطة ومثيرة يسرد المؤلف سلسلة من الأحداث تؤدي إلى نفي أوكونكو خارج قبيلته وإلى صدام مع الرجال البيض وإلى نهاية مأساوية للشخصية المركزية. وحين صدرت هذه الرواية أول مرة تلقاها جمهور واسع من القراء والنقاد في إفريقيا وأوروبا وأمريكا. وقد أفضت فنية الرواية إلى ترجمتها إلى لغات عدة منها الألمانية والإسبانية والإيطالية والروسية والسلوفينية والهنغارية والعربية. وتُعدُّ الآن من الأعمال الأدبية العالمية الحديثة.

تدور أحداث الرواية حول شخصية أوكونكو أحد زعماء قبيلة أوموفيا، الذي يعيش في حالة خوف دائم من أن يتردى وضعه فيصبح مثل أبيه أونوكا، المعروف بجبنه وكسله وفشله، والذي رحل تاركاً وراءه ديوناً كثيرة. لذلك كان أوكونكو يحاول أن يكون دائماً خلاف أبيه. بنى منذ بداية حياته مسكنه الخاص ومن ثَمَّ مجمعاً للأكواخ ضم زوجاتهِ الثلاث وأبناءَه، فقد كان مصارعاً مشهوراً في القرى التسع ومزارعاً نشيطاً ومزدهراً وزعيماً طبيعياً ومهاباً يتطلع إليه الجميع في الملمات. ومع ذلك، كان يعيش في قلق شديد ألا يرث ابنه نووي صفات جده. تهتز حياة أوكونكو حين تقع جريمة غير مقصودة تنتهي بتبني أوكونكو لفتى من قرية مجاورة يدعى إيكيميفونا ويحبه أوكونكو كما يحب أولاده. وفي الحقيقة كان يحبه أكثر من ابنه نووي. عاش إيكيميفونا طوال ثلاث سنوات مع عائلة أوكونكو الكبيرة، وبعدها قرر شيوخ أوموفيا أن الفتى يجب أن يموت. وحين يأخذ بعض رجال القبيلة إيكيميفونا إلى الغابة لقتله، يذهب معهم أوكونكو ويشارك فعلاً في قتله وفقاً لأوامر القبيلة. ويأتي قتله لإيكيميفونا من دون إظهار أية عاطفة أو وجل فهو يريد تنفيذ أعراف القبيلة ولا يحب أن يظهر ضعيفاً أو متردداً. بيد أن أوكونكو يشعر بألم دفين في أعماقه وشعور بالذنب لقيامه بذلك. وعلى الرغم من أسفه الشديد فإن أوكونكو يتماسك ولا يُظهر أي تأثير، ويحاول أن ينأى بنفسه عن نووي الذي كان بمنزلة الأخ لإيكيميفونا.

وبعدها، وخلال تشييع أحد الأموات، يطلق أوكونكو النار من دون قصد فيقتل فتىً من الحاضرين. وبسبب هذه الجريمة، تقوم قريته بنفيه مدة سبع سنوات إلى موطن أمه في مبانتا، حيث يستقبله وعائلتَه أقاربُ أمه وعلى رأسهم خاله الأصغر أوتشندو. وفي أثناء إقامته في مبانتا، يعلم بقدوم إرساليات التبشير المسيحي التي تحوّل المنبوذين من الإغبو إلى الدين الجديد. وتحرز الإرسالية المسيحية شرعيتها حين يزداد عدد المتحوّلين إليها من الإغبو. وحين ينهي أوكونكو سنينه السبع في المنفى ويسمحون له بالعودة إلى أوموفيا يعلم أن نووي قد تحوّل إلى المسيحية أيضاً، فيصاب أوكونكو بالحزن ويعزم على التخلي عن ابنه.

وفي النهاية، يحاول زعماء القبيلة التحدث إلى المبشرين، غير أن المفوض البريطاني يأمر رجاله بسجنهم وإهانتهم أيام عدة حتى يدفع القرويون فدية مالية. ويفكر بعدها الزعماء بالثأر، ويعقد سكان القرى التسع مجلساً حربياً ويكون أوكونكو ضمن الحضور ويدعو إلى اتخاذ موقف حاسم. وفي أثناء انعقاد المجلس، يحضر رسول من المحكمة ورجاله ويأمر الحضور بفض المجلس. ويُغضب ذلك أوكونكو فيقتل الرسول على الفور، ولا يتحرك بقية المجتمعين لاتخاذ موقف حيال رجال المحكمة فيتركونهم يرحلون. يدرك أوكونكو أن قبيلته لن تقاتل الرجال البيض فينهار من داخله بعد أن كان قوياً مرهوب الجانب، وينتحر بشنق نفسه إلى شجرة. وينتهي أحد أعظم رجال أوموفيا بسبب تداعي الأشياء في العالم من حوله. يتعلم مفوض المنطقة البريطاني الكثير عن حياة الأفارقة ويكتب فصولاً يضمها في كتاب يختار له بعد تفكير طويل عنواناً: تهدئة القبائل البدائية في النيجر الأدنى. وبعد أن يتآلف القارئ مع الصورة المرسومة بعناية لحياة المجتمع القبلي ولشخصية أحد زعمائه، يفاجئ بالأحداث المأساوية في نهاية الرواية التي تأتي من دون مقدمات واضحة. ومما يجعل الشعور بالمأساة أكثر حدة إدراكُ القارئ أن تلك الحياة لا تحظى إلا بفصل في كتاب المفوض، وربما وردت قصة أوكونكو ضمن فقرة من بضعة أسطر في ذلك الفصل.

أما بالنسبة إلى ترجمة الرواية إلى اللغة العربية، فإنه لابد من توافر أكثر من ترجمة لها نظراً لأهمية الرواية وأن تكون هذه الترجمات أمينة للنص الأصل في أثناء نقل مفرداته وعباراته وأسماء الأعلام والأماكن والجماعات على شكل ورودها في سرد أتشيبي. وأن تحاول جاهدة المحافظة على أسلوبه في العرض والحوار والوصف ورسمه الشخصيات من الداخل وفي حركتها الخارجية، وعلى النكهة الخاصة للغة الرواية، وعلى توارد الجمل والفقرات من دون أي تغيير في ترتيبها. وحين كان هناك ضرورة لتوضيح معاني بعض الكلمات أضفت شروحاً وتعليقات على نحو موجز في أسفل الصفحات. وأن تعمل على إجراء الكلام على الأسلوب العربي إلا حين تقتضي الحاجة كي تبقى فنية الرواية كما وردت أصلاً، لكنها لا بأس أن تجهد ما أمكن في نقل إنسيابية النص وجعله مقروءاً على نحو جلي خدمة للقارئ الكريم بالعربية بغيةً إطلاعه على إحدى أهم الروايات العالمية في الأدب الحديث.

شغلت رواية (الأشياء تتداعى) مساحة واسعة من اهتمام القراء والنقاد في كثير من بلدان العالم؛ نظراً لقدرتها على سبر أغوار الحضارة الإفريقية، ولتمكن كاتبها من نقل المتلقي إلى عوالم تلك الحضارة التي ربما ارتسمت في مخيلته صورة نمطية صاغها خطاب استعماريّ غير محايد. تقدم هذه الرواية مفارقة جلية، بين واقعين متداخلين لكنهما مختلفان اختلافاً كلياً، الأول منهما الواقع الإفريقي قبل وصول المستعمِر من جهة، فتعرض الرواية بشكل جلي منظومة القيم الاجتماعية، والعادات والتقاليد، من عرس وعزاء وأعياد، كما تصور القوانين الناظمة لحياة الناس في حال الحرب والسلم، كما تظهر التطور الكبير في القوانين والعقوبات التي تضبط تفاصيل الحياة اليومية، كما ترسم الرواية صورة واضحة للمعتقد الديني عند الأفارقة، وتسلط الضوء على احتفائهم بالطقوس المصاحبة لتلك المعتقدات كاشفة عن بعد عميق، وخيال كبير، إذ لم تكن مجرد حياة سحرية خرافية سطحية.

تُبين الروية أنَّ المجتمع الإفريقي مجتمع قبلي، ولكل قبيلة مكانها الذي تعيش فيه، ولها ساداتها من الحكماء أو الشيوخ الذين أثبتوا جدارة فذة، وقدرات فريدة، فترقوا من درجة إلى أخرى حتى استحقوا أن يرسَّموا زعماء على قبائلهم. وعلاقة الإفريقي بالطبيعة علاقة خاصة، فالزراعة مصدر عيشهم، والأكواخ بيوتهم، ومن عيدان الخيزران يصنعون أسرَّتهم. والزمان يقاس بالأشهر القمرية، وحين يصير الهلال بدراً يصير ليلهم حافلاً بالطقوس والمناسبات، أما نهارهم فيبدأ مع صياح الديك فجراً، وينتهي بذهاب الدجاج إلى أقنانها. ومشاعل الزيت مصدر الإنارة عندهم، أما الأرض فبها يتصلون، وعنها يدافعون، حتى باتت جزءاً من منظومتهم العقدية، فللأرض إلهة يتقربون إليها بالتقدمات، فهي مصدر رزقهم، واليام (البطاطا الحلوة) هو قوتهم الرئيس، فخصصوا له عيداً يكون "فرصة لتقديم الشُّكر لآني، إلهة

الأرض، ومصدر كلّ خصب، لقد كانت آني تلعب في حياة النّاس دورا أكبر ممّا تلعبه أيّة آلهة أخرى، كانت الحكم النّهائيّ للخلق والسُّلوك. وعلاوة على ذلك كانت على اتّصال وثيق بمن انتقل من آباء القبيلة، ومن وريت أجسامهم بالتُّراب"(1).

كما تظهر الرواية شدة اللحمة والتآزر في إطارالقبيلة الواحدة، فالعرس من أهمّ الأحداث الّتي تجتمع فيه القبيلة، فعندما أقيم عرس ابنة أوبيريكا _صديق أوكونكو_ كان على أهل العروس أن يُعدّوا الطعام احتفاء بقدوم أهل العريس، وعلى كل فرد من أفرادها أن يُسهم بشي معين، فالشبان يقطعون الأخشاب، والأولاد يحضرون المياه؛ لتقوم النسوة بطهي الطعام، أما أهل العريس فيجلبون معهم طعاماً كثيراً وشراباً، ويعقدون عقد قران مميَّزاً، فيه احترام متبادل من الطَّرفين، وفي اللَّيل يجتمع الرِّجال الكبار في حلق معتددة، ويبدأ المغنُّون بالدوران حولهم، ويمدحون كلَّ شخص يتوقَّفون عنده بوصفه فلَّاحاً عظيماً، أو مصارعاً قويَّاً...(2).

كما أن الأتراح تظهر تكاتف الإفريقي مع أخيه، فأوكونكو يلجأ مع أسرته إلى قبيلة أمّه في منطقة (أمبانتا) لأنَّه قتل شخصاً خطأً، ذلك أن القانون يقضي بنفي القاتل سبع سنوات إذا كان ارتكاب الجريمة عن غير قصد منه، تلافياً لغضب إلهة الأرض(3)، فقامت قبيلة أخواله باستقباله استقبالاً حسناً، إذ قدموا له أرضاً وأكواخاً وبذور اليام، ليضمنوا له حياة كريمة، يكتب تحرير حمدي في هذا الإطار: إنَّ المجتمع الإفريقيّ لم يكن ليتخلَّى عن الفرد، فإن طُرد من قبيلة أبيه استقبلته قبيلة أمّه، وبين النَّفي والتّرحاب يتجلَّى الاتِّزان(4).

وإذا ما تجرأ شخص على قتل شخص آخر من قبيلة أخرى، فإن قبيلة الشخص المقتول تعقد اجتماعاً عاماً للتشاور والتباحث، فحينما قتل رجل من قبيلة أمبيتو امرأة من قبيلة أوموفيا "...تقرَّر أن تتَّبع الطَّريقة المعتادة في مثل تلك الأحوال، أُرسل في الحال إنذار إلى (قبيلة) أمبينو طالباً من أهلها أن يختاروا إمَّا الحرب، وإمَّا أن يقدِّموا شابَّاً وعذراء كفدية"(5). فالموت خيار غير مفضَّل، فإن كان القتل عن غير قصدٍ نُفِيَ القاتل فترة من الزَّمن، وإن كان عن قصد، فيمكن تجنُّب القتال بالفدية، ويعزِّز إيمانَهم بتقديم الحياة على الموت إيمانُهم بأسبوع السَّلام، وفي هذا تفنيد لما دأب الدارسون الغربيون عليه من تمثيل للشُّعوب المستعمَرة بالشُّعوب المتوحِّشة، وأكلة لحوم البشر(6).

استطاع تشينوا أتشيبي أن يمنح الإنسان الإفريقي فرصة للتعبير عن الذات الإفريقية، للحديث عن ذاتها ومعتقداتها الدينية والاجتماعية، فالمتلقي يسمع عن إفريقيا من إفريقي أسود أصيل، عاش تلك الحضارة، فنقلها إلى المتلقي بصدق وواقعية دون تشويه المستعمِر، وكما تقول ليلى الصابوني: إنَّ قيام أتشيبي بالعودة "إلى الوراء زمنياً إلى فترة ما قبل الغزو الأبيض أراد أن يذكِّر أبناء قارته بالكرامة التي اعتزوا بها يوماً، وبضرورة استعادتها والمحافظة عليها"(7). ولكن ذلك الماضي النابض بالحياة والحركة ما كان له ليدوم بعد قدوم المستعمِر الأوروبي البريطاني الأبيض، من هنا تأتي قيمة الرواية في تقديم الصورة الثانية لإفريقيا بعد وصول المستعمِر، فالرواية تقدم مفارقة كبيرة بين جانبين مختلفين لمكان واحد، فمع ظهور المستعمِر بدأت الحياة الإفريقية تأخذ منحىً آخر، ذلك أن المستعمِر وظف إمكاناته كافة من إجل إحكام السيطرة على الآخرالمستعمَر، فتكشف الرواية عن آليات عدَّة عمد إليه المستعمِر ليبقي الإفريقيّ تابعاً له. كما تكشف الرواية عن آليات المقاومة والبقاء للمستعمَر صاحب الأرض.

*** آليات التفكيك والسيطرة:**

استطاعت المؤسسة الاستعمارية البريطانية إحكام سيطرتها على الإفريقي عبر وسائل مختلفة، معتمدة في ذلك على آلتها العسكرية، والتعذيب الجسدي لكل من تسوّل له نفسه مقاومة الواقع الجديد، فضلاً عن تهميش الآخر وتحقيره، والنقطة التي عملت الرواية على إبرازها بشكل واضح هي قيام المستعمِر على تقويض مقومات الهُويَّة الإفريقية فكراً وعقيدة ونظام عيش، مقدِّماً البديل الحضاريَّ الجديد المتوافق مع مصالحه الإمبريالية، التي ضمنت لها توريُّط الآخر/ المستعمَر بعلاقات تبقيه تابعاً غير مستقل عن المركز/ المستعمِر. وكما يرى عبد الله إبراهيم: "اقترحت التَّجربة الاستعماريّة نمطاً مغايراً للأنماط الأصليّة من العلاقات، حينما أُخضِع المستعمَرون إلى علاقة تبعيّة مع المركز الاستعماريّ الغربيّ، فأصبحت فيه بديلاً للعلاقة مع الطَّبيعة"(8).

تقدم الرواية صورة سلبية مضمخة بالدَّم للمستعمِر البريطاني منذ لحظة ظهوره الأولى، فتفجأ الرواية المتلقي بقيام البريطاني بإبادة قبلية (أبامي) عن بكرة أبيها، وذلك عندما أعلم أوبريكا صديقَه أوكونكو (الشخصية المحورية) حينما كان الأخير منفياً إلى قبيلة أخواله بعد أن قتل شخص خطأ، يقول أوبريكا:

"أتعلم أنَّ آبامي قد انتهت؟

فسأل أوشندو وأوكونكو معا: كيف كان هذا؟

ــ...ظهر الرَّجل الأبيض في قبيلتهم... كان يركب حصاناً من الحديد (درَّاجة)... جرى أوَّل من رأوه من النَّاس مبتعدين، لكنَّه وقف يشير إليهم، داعيا إياهم أن يقتربوا... وهكذا قتلوا الرَّجل الأبيض، وربطوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم المقدَّسة؛ لأنَّه بدا وكأنَّه سيجري ليدعو أصدقاءه، نسيتُ أن أخبركم بشيء آخر. قال العرَّاف: إنَّ رجالاً بيضاً آخرين في الطَّريق إليهم. قال: إنَّهم جراد، وإنَّ هذا الرَّجل الأوَّل هو رسولهم، أُرسِل ليستكشف الأرض وهكذا قتلوه ... أشعرُ بخوف شديد، لقد سمعنا قصصاً عن رجال بيض صنعوا بنادق قويَّة ومشروبات روحيَّة قويَّة وأخذوا عبيداً عبر البحار"(9). وحدث بالفعل ما تكهَّن به عراف القبيلة، إذ قدم الرجال البيض وذهبوا إلى سوق قبيلة أبامي، وقاموا بإطلاق النار بشكل عشوائي على الناس، فهوى الجميع صرعى، وقد اصطبغت البحيرة بلون الدم(10). فالمستعمِر الأبيض لا يتوانى عن إبادة قبيلة بأكملها سعياً وراء إخضاع القبائل الإفريقية، فتتداعى شخصية المستعمَر أمام المستعمِر الذي لا يقهر بآلته وبطشه العسكريين.

وتعرض الرواية مشهداً قاسياً، إذ تعرَّض كل من أوكونكو وخمسة رجال آخرين من ذوي الهيبة والمكانة، للسجن والتعذيب والإهانة من قص لشعرهم، ومنعهم من قضاء حوائجهم، ذلك أنهم قاموا بتدمير الكنيسة تعبيراً عن رفضهم، وانحيازاً لآلهتهم التي تعرضت للسخرية، بعد أن قام المتحوِّلون إلى دين المستعمِر بالإساءة بشكل كبير إلى آلهة الأرض الَّتي تشكِّل جزءاً مهمَّاً من المنظومة الدِّينيَّة للقبيلة(11).

إنَّ إحكام السيطرة يستدعي بالضرورة هدم صورة الزعيم الإفريقي أمام نفسه أولاً، وهذا ما أحسَّ به أوكونكو المصارع الذي لا يُغلب، إذ شعر بمرارة الذل والعجز في الوقت نفسه. كذلك تمَّ تحطيم صورة الزعيم أمام أفراد قبيلته، لا سيما أنَّ لزعماء القبائل شأناً كبيراً في نفوس أتباعهم. فإذا ما كان المستعمِر لا يتردد عن إيقاع أنكى العقوبات بزعماء قبائلهم، فإنه لن يتردد عن فعل ذلك مع بقية القبيلة، وبذلك تتداعى شخصية صاحب الأرض إزاء المستعمِر الأبيض الذي لا يُقهَر.

أما الأسلوب الأخير الذي انتهجه المستعمِر في إخضاع المستعمَر فكان من خلال تفكيك بنيته الثقافية وتدميرها، وإجباره على تبني الطرح الاستعماري الجديد، وعلى هذا يؤكِّد روجيه جارودي بقوله: "أعطى الغرب الاستعماريّ منذ خمسة قرون ــوالعرض مستمرــ مثال التَّطرُّف الأكثر فتكاً، وهو الادِّعاء بامتلاك الثَّقافة الوحيدة الحقيقيَّة، والدِّين العالميّ الوحيد، نموذج التَّنمية الوحيد، مع نفي أو تدمير الثَّقافات الأخرى، الدِّيانات الأخرى"(12). فتُظهر الرواية عناية المؤسسة الاستعمارية بالتبشير، فقد استطاعت من خلاله أن تسلخ الإفريقي عن واحد من أهم مكوناته الفكريَّة والاجتماعية، وهو الدين، وإجباره على تبني الدين المسيحي دين المستعمِر، فالمبشرون ــبوصفهم أدوات استعمارية فاعلةــ استطاعوا أن يفكِّكوا المجتمع، ويدمِّروا وحدته، وأن يقسِموا العائلة قسمين، فكان لهم الدَّور الأبرز في جعل المتحوِّلين إلى الدِّين الجديد أداةً فاعلة في يد قوى الاستعمار، إذ أصبح انتماء المواطنين المحليّين إلى المستعمِر الأبيض، بعد أن انسلخوا عن ديانتهم وثقافتهم الإفريقيَّة الَّتي كانت جامعة ذات يوم.

وتكشف الرواية دهاء المستعمِر في نشر دينه، فهو يدرك تماماً أهمية دين الأسلاف ومعتقداتهم في نفس الإفريقيّ، إذ كان للدين حضور بارز متعلق بحياتهم اليومية، لذلك لم يعمد المستعمِر إلى الاستفزاز والمواجهة المباشرة، نقرأ في الرواية: "تعلَّم السَّيِّد براون الشيء الكثير عن دين العشيرة، واستنتج أنَّ أيَّ هجوم سافر عليه لن ينجح، لذا بنى مدرسة ومستشفى صغيرا في أوميفيا... مضى من أسرة إلى

أخرى يرجو النَّاس أن يُرسِلوا أطفالهم إلى مدرسته، لكنَّهم لم يُرسِلوا في بادئ الأمر سوى عبيدهم، أو في بعض الأحيان الكسالى من أطفالهم. ترجى السيد براون وحاجَّ وتنبأ. قال: إنَّ قادة البلد في المستقبل سيكونون رجالا ونساء قد تعلَّموا القراءة والكتابة، فإذا امتنعت أوموفيا عن إرسال أطفالها إلى المدرسة، فسيأتي أغراب من أماكن أخرى ليحكموهم...وأخيراً بدأت حجج السَّيِّد براون تأتي بنتيجة، جاء عدد أكبر من النَّاس ليتعلَّموا في مدرسته، وشجَّعهم بهدايا من القمصان والفوط...كانت بضعة شهور بها كافية بأن تجعل المرء أحد رسل القضاء، أو حتَّى كاتباً في المحكمة، أمَّا أولئك الَّذين بقَوا مدَّة أطول فأصبحوا مدرِّسين، ...أقيمت كنائس، جديدة في القرى المجاورة، ومعها بضع مدارس، منذ البداية سار التَّعليم والدِّين جنباً إلى جنب"(13).

يظهر المقطع السابق أن المبشر براون كان على علم ودراية بالمنظومة الفكرية والعقدية للمستعمَر، فانتهج أساليب تمكنه من الوصول إلى هدفه من دون رفض أو مقاومة، فعمد إلى أساليب الترغيب من خلال بناء المدارس والمستشفيات، وتقديم الهدايا، كما عمل بشكل دؤوب على إقناع السُّكَّان المحلِّيِّين بضرورة إرسال أبنائهم إلى المدارس التي تقدم تعليماً كنسياً فضلاً عن بقية العلوم، ولما أحس بالرفض وعدم الاكتراث استطاع أن يستثير مشاعرهم، من خلال فهمه للعقليَّة التَّنافسيَّة الَّتي كانت سائدة بين القبائل، فالمتعلِّمون هم فقط الذين سيحصلون على الوظائف الجيِّدة الَّتي قامت قوى الاستعمار على إيجادها، وبالتَّالي تبرز هنا قدرة المستعمِر على إدخال المستعمَر في علاقات جديدة لا يجد نفسه من خلالها إلَّا تابعاً، مضطرَّاً على تعلم ديانة الرَّجل الأبيض مذ نعومة أظفاره.

أما عن الذين رفضوا الالتحاق بالمدارس الكنسية فقد قام المبشرون بنشر الدِّين الجديد بينهم من خلال الحوارات والنقاشات، فعملوا على تقويض المعتقدات الَّتي يدينون بها، وقدَّموا لهم دين الرجل الأبيض بوصفه الدين الحق الذي يجب عليهم أن يدينوا به، "أخبرَهم عن هذا الإله الجديد، خالق العالم كلِّه والرِّجال والنِّساء جميعا، قال لهم: إنَّهم يعبدون آلهة من الخشب والحجر، سرت في الجميع همهمة عميقة عندما قال ذلك، قال لهم: إنَّ الإله الحقيقيّ يعيش في العلا، وإنَّ جميع البشر عندما يموتون يذهبون إليه للدينونة، أمَّا الأشرار والوثنيُّون الَّذين يَحنون الهامات للخشب والحجر فيُلقَى بهم في النَّار الَّتي تشتعل كزيت النَّخيل، أما الأخيار الذين يعبدون الإله الحقيقي فيحيون إلى الأبد في مملكته السعيدة. قال: "لقد أرسلَنا هذا الإله العظيم، لنطلب إليكم أن تتركوا طرقكم الشِّريرة، وألهتكم المزيَّفة وتتَّجهوا إليه لكي تخلوا عند موتكم".... وبعد التَّرتيل تحدَّث المترجم عن ابن الله؟! الَّذي يُدعى يسوع المسيح...

ـ لقد قلت لنا بفمك: إنَّه لا يوجد سوى إله واحد، والآن تتحدَّث عن ابنه، لا بدَّ أنَّ له زوجة إذن.

ـ لم أقل إنَّ له زوجة

ـ ...

تجاهله المبشِّر واستمرّ في الحديث عن الثَّالوث المقدَّس... لكنَّ صبيَّاً وقع في الأسر، إنَّه نووي بن أوكونكو البكر، لم يأسره منطق الثَّالوث المجنون، إذ لم يفهمه، بل أسره شعر الدين الجديد..."(14).

فالأسلوب غير الاستفزازيّ للمبشِّرين، فضلاً عن الدَّور الخطير الَّذي اضطلعت به المدارس الكنسيَّة، كلّ ذلك قد أسهم في تفكيك المجتمع وإخضاعه للمستعمِر دون قيام مقاومة شعبية تحول دون تحقيق أهدافهم، فانتشر الدِّين الجديد انتشاراً واسعاً وسريعاً، ولم يقتصر ذلك الانتشار على المنبوذين من الناس، بل تجاوزه إلى السادة والأشراف، في مؤشر خطير إلى تداعي البينة الاجتماعية للمجتمع الإفريقي، وتبني الطرح الاستعماري الدخيل "لقد تغيرت أوموفيا حقا أثناء السنوات السبع التي قضاها أوكونكو في المنفى. جاءت الكنيسة وحوَّلت كثيرين عن الطَّريق السَّويّ، لم ينضمّ إليها حثالة القوم والمنبوذون فقط، بل كان ينضمّ إليها من آن لآخر رجلٌ جدير بالتَّقدير"(15). من هنا قد لا يكون رأي عبد الله الدَّقامسة دقيقياً، حينما رأى أنَّ المستعمِر البريطانيّ لا يملك المعرفة الكافية في التَّعامل مع المستعمَر، لذلك تعرَّض لهم بطريقة سلبيَّة، الأمر الَّذي قاد إلى الصِّراع والمواجهة، وقد استشهد بالمبشِّر (سميث)(16). فالمبشرون

بوصفهم أداة من أدوات المؤسسة الاستعمارية كانوا على معرفة دقيقة واضحة، الأمر الذي سهل عليهم تحقيق هدفهم القائم على الإخضاع والسيطرة، ولا يمكن إطلاق حكم عام بناء على أخطاء فردية، مثل تلك الممارسات الي قام بها المبشر سميث.

لم يقتصر دور التبشير بوصفه أداة إخضاع وسيطرة وتدمير لبنية المجتمع بشكل عام، بل تجاوزه إلى تفكيك الأسرة من الداخل، وهذا مؤشر اجتماعي خطير، فالإفريقي منتسب إلى أسرته وإلى قبيلته الكبرى في إطارها العام، ولكن المستعمِر الجديد استطاع أن يفكك بنية الأسرة الواحدة، وهذا ما حدث مع نووي الَّذي اتَّبع الدِّين الجديد، وهو ابن البطل أوكونكو المعتزّ بقيم مجتمعه وعاداته، الأمر الَّذي سبَّب له ألماً وحزناً شديدين. والمبشر يخشى من تردد نووي ورجوعه إلى دين القبيلة، فقام بتوظيف النَّص الدِّينيّ ليضفي شرعيَّة على فعله، "طوبى لمن يترك أباه وأمَّه من أجلي"(17).

أما النُّقطة الأخيرة الَّتي يجب الإشارة إليها، وهي قدرة الخطاب الاستعماري الأوروبي على تحويل المستعمَر من موقع الرفض والمقاومة، إلى موقع القبول والإذعان للواقع الجديد، بل تجاوزه ليصبح المستعمَر متبنياً عن قناعة تامَّة خطابَ مستعمِره، فأصبح الإفريقي يستهدف حضارته ودينه ومقومات هويته بنفسه، وهنا تتجلى مفارقة مؤلمة، فإذا كان المستعمِر الأبيض قد انتهج الأسلوب السلمي في نشر دينه، فإنَّ أتباع الدِّين الجدد لم يتردَّدوا في الإساءة إلى دين الأسلاف، إذ "...ذهب ثلاثة من الرجال الَّذين اعتنقوا الدِّين الجديد إلى القرية، وفاخروا أمام الجميع أنَّ جميع الآلهة ميِّتة عديمة القدرة، وأنَّهم على استعداد لتحدِّيها بحرق جميع هياكلها... "(18). وتتجلَّى أهميَّة العمل التَّبشيريّ كلّه في جعل المستعمِر في موقع الإخضاع والسَّيطرة، والإبقاء على المستعمَر تابعاً مفكَّكاً خسر هويَّته ولحمته، محافظاً على هامشيَّته، راضياً بها، وقد تبنَّى خطاب المستعمِر نفسه.

*** آليات المقاومة والبقاء:**

كان تشينوا أتشيبي واقعياً في التعبير عن مرحلة الاستعمار الأوروبي لبلده نيجيريا بخاصة، ولإفريقيا بعامة، لذلك كان تركيزه منصبَّاً على إبراز الممارسات التي انتهجتها المؤسسة الاستعمارية الأوروبية في الإخضاع والسيطرة، في حين أن المقاومة والرفض المتوقعين من الإفريقي لم يأخذا حيزاً واسعاً، ذلك أن فعل المقاومة والرفض كان ضعيفاً ومفككاً من جانب المستعمَر، فكان الرفض محدوداً ومحصوراً في اتجاهات بعينها، أو من قبل أشخاص فرادى، ولم تنتظم المقاومة بوصفها ردة فعل طبيعية، إذ تكشف الرواية عدمَ تبلور الفكر المقاوِم بحيث يتَّبع استراتيجية معينة، ويأخذ منحىً جمعياً، فكانت مجابهتهم للمستعمِر لا تتجاوز المنظومة العقدية والطقسية التي كانوا يؤمنون بها، ومن ذلك مثلاً، أنَّهم لم يرفضوا أو يمنعوا المبشرين الذين طلبوا قطعة من الأرض لبناء كنيسة، بل استقر عندهم الرأي بعد التشاور والتداول على إعطائهم قطعة من الأرض في (الغابة الشِّريرة)، تلك الغابة التي يعتقدون أنها ملأى بالأرواح الشريرة، ذلك أنهم يدفنون موتاهم فيها ممن أصابه الجدريّ أو البرص، وهي المكان الذي يُلقى فيه بأعمال السِّحر القويَّة الخاصَّة بكبار رجال الطِّب حينما يموتون. ولكن رهانهم على الغابة الشرية الملأى بأرواح الشر التي ستتكفل بإبادة الرجل الأبيض باءت بالفشل، فازداد إيمانهم أنَّ إله الرجل الأبيض له قوى خارقة، ونسجوا خرافات حول ذلك الإله، فاعتقدوا أنه يرتدي نظرات خاصة، يستطيع من خلالها أن يرى الأرواح الشريرة، وأن يتحدث إليها، مع إيمان بعضهم أن العقوبة التي ستحل بالرجل الأبيض لا بدَّ آتية، ولكنها قد تتأخر أربعة أيام، ولما كان اليوم الأخير ظل المبشرون أحياء مستمرين في بنائهم وفي أعمالهم، فازداد عدد المتحولين إلى الدين الجديد!. ويقدم تبشير حمدي رأياً معقولاً في هذا السياق: على الرغم من قيام أتشيبي بتصوير الثَّقافة الإفريقيَّة بطريقة مشرِّفة، إلَّا أنَّه كان واقعيَّاً في تصوير تلك الثَّقافة، إذ لم يعظِّمها أكثر ممَّا ينبغي، كما أنَّه أظهر نقاط الضَّعف في تلك الثَّقافة، الأمر الَّذي أتاح للمستعمِر الأبيض أن ينجح في إحكام سيطرته على إفريقيا(19).

ومن المواقف النادرة التي تظهر مقاومة المستعمَر بشكل قوي، حينما ثار مجموعة من رجال القبيلة غضباً على المتحولين الى الدين الجديد، فقبضوا عليهم، وضربوهم حتى سالت الدماء من أرجلهم، ذلك أنهم سخروا من آلهتهم، ونعتوها بأنها آلهة ميتة تستحق

الحرق(20). لذلك كان المبشِّر يدرك أنَّ تلك القبائل تعتز بآلهتها، فكان يصر على عدم التعرض لها، وما كان ذلك إلا أسلوباً سلساً ضمن من خلاله عدم مقاومة القبائل له، وكي يتم تقبُّل الدين المسيحي دون عناء، يقول أتشيبي: "وهكذا أصبح السَّيد براون محترماً حتى من العشيرة لأنَّه وطئ دينها برفق. صادقَ بعضَ عظماء العشيرة، وفي إحدى زياراته المتكرِّره إلى القرى المجاورة قُدِّم له نابُ فيل محفور، كدليل على الهيبة والمركز الرَّفيع..."(21).

وفي حادثة مشابهة، قامت العشيرة بتدمير الكنيسة التي بناها المبشرون وأحالوها رماداً، ولكن تلك الواقعة لم تكن رفضاً للوجود الاستعماريّ نفسه، بل كانت ردة فعل مباشرة وغاضبة على شبان بأعينهم كانوا قد أساؤوا إلى آلهة العشيرة ومعتقداتها، فاجتمعت العشيرة وتبادلوا الآراء، ولكن اجتماعهم أسفر عن ضرورة أخذ الحيطة والحذر، وأن يسيروا مسلحين حتى لا يؤخذوا على حين غرة، كما حدث مع قبيلة آبامي، دون الإشارة إلى ضرورة مقاومة المستعمِر أو مجابهته (22). تقول نتالي يكنيان: إنَّ رواية (الأشياء تتداعى) تعالج مرحلة تاريخيَّة كان الأفارقة فيها غير مدركين للأبعاد الاستعماريَّة، والآثار المدمِّرة الَّتي ستلحق بهم، فاختاروا التَّجاهل طريقاً، ظانِّين أنَّ ذلك الخطر ستزول آثاره بالتَّجاهل(23).

وعلى الرغم من غياب المقاومة الجماعية المنظمة، إلا أن الرواية تسلط الضوء على شخصية أوكونكو الذي استشعر خطر الرجل الأبيض منذ البدايات، حينما كان منفياً عند قبيلة أخواله، التي لم ترغب في مقاومة الرجل الأبيض، ولكن شعوره بالغربة دفعه إلى كبت مشاعره مراهناً على قبيلته أوموفيا، وأنه سيقودها لمحاربة الرجل الأبيض حينما يعود إليها، لكن صدمته كانت أيضاً كبيرة، "يحزّ الحزن بشدَّة في نفس أوكونكو، ولم يكن حزنه حزناً شخصيَّاً فحسب. حزن على العشيرة، الَّتي كانت تتفكَّك وتتداعى، وحزن على رجال أوموفيا الشُّجعان المحاربين، الَّذين أصبحوا دون سبب واضحٍ في لين النِّساء"(24). وبعد أن تعرَّض أوكونكو ومعه خمسة رجال من القبيلة للضَّرب والإهانة على يد الرَّجل الأبيض، غضبت القبيلة وعقدت اجتماعاً كبيراً للتَّباحث، أراد أوكونكو أن يستغلَّ تلك الحادثة، مغتنماً حالة الغضب التي أصابت رجال القبيلة، من أجل تحفيزهم على القتال والمقاومة، وأثناء الاجتماع جاء مبعوثو السلطة الاستعمارية لمنعهم من إكمال الاجتماع ذلك أن الاجتماعات الكبيرة كانت ممنوعة، فحاول أوكونكو اعتراض طريق مفوَّض الرجل الأبيض إلا أن الأخير قد تجاهله، فاستل أوكونكو خنجره وأرداه قتيلاً، لكن القبيلة لم تستجب له، وسمحوا لمبعوثي الرجل الأبيض بالهروب دون أن يعترضوا طريقهم، فأصابته خيبة كبيرة حينما سمع همهمات من رجال قبيلته وهم يقولون (لِمَ فعل ذلك؟) فتركهم وولَّى وحيداً، ليتفاجأ المتلقِّي في نهاية الرِّواية بقيام أوكونكو بالموت انتحاراً، فيبدو أنَّ أوكونكو اختار أن ينهي حياته بيديه، لأنه لم يعد قادراً على تحمل تداعي أسرته بعد أن تحول ابنه إلى الدين الجديد، وتداعي المنظومة الدينية والفكرية والاجتماعية للقبيلة، بعد أن صارت مفككة لا رغبة لها في القتال، وكما تشرح نتالي ياكنيان: إنَّ الأبطال أمثال أوكونكو الَّذين يقاتلون من أجل قضايا سامية، بعيداً عن المصالح الشَّخصيَّة، فإنَّهم غالباً سيفشلون؛ لأنَّ حربهم لم تعد مقصورة على المستعمِر، إنَّما تعدَّتها إلى أبناء شعبه الَّذين يخالفونهم بالرُّؤية(25).

تنتهي الرِّواية بنهاية أوكونكو المأساويَّة، ويبدع أتشيبي في الحوار الَّذي دار بين الحاكم البريطانيّ ومرافقيه الَّذين جاؤوا للقبض على أوكونكو، وبين صديقه أوبريكا، الَّذي طلب من الحاكم البريطانيّ أن يقوم جنوده بإنزال جسد أوكونكو المعلَّق على الأرض،

"_ لماذا لا تنزلونه أنتم بأنفسكم.

_ إنَّ هذا يتنافى مع عاداتنا، فقتل الشَّخص لنفسه مكرهة. يعدّ معصية ضدَّ الأرض، ولا يدفن ارجلَ الذي يرتكبها أهلُ عشيرته. فجثَّته شرِّيرة، لا يلمسها إلَّا الأغراب، وهذا هو السَّبب في أنَّنا نطلب من رجالك أن ينزلوه لأنَّهم أغراب.

...

استدار أوبيريكا الذي كان يحدق بثبات في جثة صديقه المدلاة فجأة إلى الحاكم وقال بوجشيَّة:

_ كان ذلك الرَّجل من أعظم رجال أوموفيا، لقد دفعتموه ليقتل نفسه، وسيدفن الآن ككلب.
وارتعش صوته، وخنقته العبرات"(26).

أبدع تشنوا أتشيبي بحق في تصوير التجربة المريرة التي عاشها الإفريقي مع مستعمِره الأوروبي، وأن يُسمع العالم الصوت الإفريقي الذي خبا ردحاً من الزمن تحت نير مستعمِره الذي أسمع العالم أنه رسول المحبة والتسامح والحضارة والانحياز إلى الإنسان، فاستطاع أتشيبي أن يقدم صورتين ضديتين لإفريقيا قبل الاستعمار وبعده، إذا كانت قبل وصول الرجل الأبيض ملأى بالحيوية والحياة والحركة، ولكن بعد قدوم المستعمِر تداعت تلك الحياة، وانطفأ وميضها، وخيم عليها الصمت والسكون والكآبة، بعد عمليات النهب والإخضاع والسيطرة، وهذا يتناغم مع شخصية أوكونكو الذي كان يفيض قوة وشباباً وحركة، ولكنه مع قدوم الرجل الأبيض وإحكام سيطرته على قبيلته، انطفأ بريقه، وتملكه الأسى والإحباط والإهانة كقبيلته وبلده والقارة التي ينتمي إليها، فتزامُن نهاية أوكونكو يتناسب مع نهاية قبيلته، الذي جاء متَّسقاً مع نهاية الرِّواية، ليجد المتلقي نفسه مذهولاً أمام مجموعة من النهايات المضمخة بالصَّمت والفناء.

*** الخاتمة:**

من خلال ما سبق يمكن القول: إن الرِّواية تقوم على ثلاثة محاور رئيسة، الأول منها: يقوم على تقديم صورة واضحة وجلية للحضارة الإفريقيّة قبل الاستعمار، فبدت حضارةً مفعمة بالحيويَّة والحركة والعنفوان، إذ كانت القبيلة اللبنة الرئيسة في المجتمع، ففيها يعيش الفرد، وإليها يكون انتماؤه وولاؤه، من هنا كانت العلاقة بين أفراد القبيلة الواحدة علاقة حميميَّة تقوم على التآزر والتكاتف والاتِّحاد، ولما كان هذا واقع حالهم، استحدثت القبيلة الإفريقيَّة روابط وثيقة تجمع بين أفرادها، وقد ظهر ذلك عبر الطُّقوس والعادات والتَّقاليد، كما أنه تسرَّب إلى الفكر والمعتقد، من هنا جاء إلحاح أتشيبي على تصوير جوانب الحياة اليوميَّة للقبيلة، فرحاً، وترحاً، وعبادات. وتنبثق أهمية هذا المحور في الرَّد على الخطاب الغربي الذي رسم صورة نمطيَّة مشوَّهة للعالم غير الأوروبيّ، وما كان ذلك إلَّا تسويغاً خفياً حيناً، ومعلّناً في حين آخر رغبةً في السَّيطرة على تلك البلاد لتخليص شعوبها من رجعيَّتها والوحشيَّة التي هي جزء بنيويّ في تكوينها كما يدَّعون، فكان الخطاب الرِّوائي ردّاً من الأطراف إلى المركز، وقد جاء ذلك على لسان المستعمَر نفسه، لا بلسان مستعمِره.

أما المحور الثَّاني الذي عملت الرِّواية على تجليته بشكل كبير، فهو الكشف عن آليَّات الإخضاع والسَّيطرة التي اعتمد عليها المستعمِر الأبيض، من أجل تفكيك بنية المجتمع من الدَّاخل، عقديَّاً واجتماعيَّاً، إذ عمل على تفكيك النِّظام الاجتماعيّ، فانقسمت القبيلة على ذاتها، وذلك عبر وسائل إخضاع رهيبة، استطاع من خلالها بالفعل إحكام سيطرته على إفريقيا، معتمداً في ذلك على آلته العسكريَّة، التي أهَّلته لدخول البلاد بالقوَّة، وإنشاء حكومات يديرها وفقاً لمصالحه الإمبرياليَّة. كما عملت المؤسَّسة الاستعماريَّة على اختراق الإفريقيّ من خلال المؤسَّسات التَّبشيريَّة الكنسيَّة الّتي كانت ذراعاً ثقافياً فعالاً، فمن خلالها تداعت القبيلة، وانقسمت الأسرة بين تابع لدين المستعمِر الجديد، ومتمسك بآلهة الأسلاف، وقد نوَّع المستعمِر في أساليبه حتى استطاع أن يسلخ الإفريقيّ عن منظومته الثَّقافيَّة، وذلك عبر اللين حيناً، من خلال تقديم بعض الهدايا والأعطيات، أو عن طريق التَّسخيف والسُّخرية من سذاجة دين الأسلاف المبنيّ على الشَّعوذة واللاجدوى، كما عمل المستعمِر على استغلال حاجات القبيلة بعد أن ارتبطت الكنيسة بمؤسسات تعليميَّة تابعة لها، فصارت مرتكزاً للحصول على الوظائف والامتيازات، وتتجلى أهميَّة هذا المحور في كشف النِّقاب عن الممارسات الاستعماريَّة الأوروبيَّة، فنجحت الرِّواية في إظهار الرّجل الأبيض على حقيقته، وتحطيم الصُّورة المثاليَّة التي دأب على تقديمها للعالم، ليجد المتلقي نفسه أمام مستعمِر استثنائيّ لا يرحم، ومستعمَر مُستلَب بعد أن تداعت مقوِّمات هويَّته التي كان معتزاً بها ذات يوم.

أما المحور الأخير، فيركز على إبراز ما قام به المستعمَر رفضاً ومقاومة من أجل البقاء، إلّا أن هذا الجانب كان ضعيفاً، إذ كانت المقاومة ضعيفة ولم ترتقِ إلى مستوى الممارسات الاستعماريّة، فكان رفضهم معتمداً على معتقداتهم، إذ آمنوا أن الأرواح الشريرة هي التي

ستتكفل بإبادة الرجل الأبيض، وأن الآلهة التي يدينون بها ستعمل على إفناء كل من أساء إليها، وعلى الرغم من عدم تحقق ذلك، إلّا أنه لم يظهر هناك وعي جمعيّ تَجسَّدَ مقاومةً حقيقةً فاعلةً في صدّ المستعمِر، من هنا لم تكن الجهود الفردية قادرة على تغيير معطيات الواقع الجديد، لذلك تُعدُّ جهود أوكونكو هي الأكثر رفضاً للمستعمِر، والأشدّ تمسكاً واعتزازاً بتراث القبيلة وطقوسها، إلَّا أنَّه اختار الموت انتحاراً، بعد تيقُّنه أنه عاجز عن تغيير الواقع الجديد، كما أنه لا يمكن أن يرضى به.

من هنا ستظل رواية الأشياء تتداعى علامة فارقة في آداب ما بعد الاستعمار، إذ تمكنت من الكشف عن طبيعة العلائق المعقدة بين المستعمِر والمستعمَر، كما تكمن أهميتها في منح العالم فرصة للاستماع إلى المستعمَر نفسه!.

*** قائمة المصادر والمراجع:**

* أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية:

- أتشيبي، تشينوا، *الأشياء تتداعى*، ترجمة: إنجيل بطرس سمعان، مصر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط1، 1971.
- جارودي، روجيه، *حفَّارو القبور: الحضارة الَّتي تحفر للإنسانيَّة قبرها*، ترجمة عزَّة صبحي، القاهرة: دار الشروق، ط3، 2002.
- إبراهيم، عبد الله، *المحاورات السَّرديَّة*، بيروت: الدَّار العربيَّة للعلوم، ط1، 2011.
- العُمَر، بلال، خطاب ما بعد الكولونياليَّة في أعمال الطَّاهر وطَّار وتشينوا أتشيبي الرِّوائيَّة، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلاميَّة، 2015.
- الصَّابوني، ليلى، *الأشياء تتداعى*، مجلة الآداب الأجنبيَّة، العدد 38_39، سورية، 1 يناير، 1984.

*** ثانياً: المراجع باللغة الإنجليزيَّة:**

- Hamdi, Tahrir, *Discourses of Domination and Liberation in Selected Works by Lucie Duff Gordon, Joseph Conrad and Chinua Achebe: the processes of (Othering) and Liberating the Native)*, Ph.D. Thesis, University of Jordan (2001).
- *AL-Dagamseh, Abdullah, Cultural Critique in Selected Works of Chinua Achebe, Master Thesis, Yarmouk University, 2003, pag:42_46.*
- Yegenian , Natalie, Patterns of Heroes in the Novels of Chinua Achebe, Master Thesis, University of Jordan, 1999.

الهوامش:

(1). تشينوا أتشيبي، *الأشياء تتداعى*، ترجمة: إنجيل بطرس سمعان، ط1، الهيئة المصرية العامة للنشر: 1971، ص65_67.

* يوجد ترجمات عدة لهذه الرواية بالعربية، لكن الإشارات والاقتباسات ستكون من هذه الترجمة إلا إذا ذكر غير ذلك.

(2). الرواية، ص160_170.

(3). الرواية، ص177.

(4).**Tahrir Hamdi, *Discourses of Domination and Liberation in Selected Works by Lucie Duff Gordon, Joseph Conrad and Chinua Achebe,* Ph.D Thesis, University of Jordan, 2001, pag: 163_164**.

(5). الرواية، ص35.

(6). انظر: بلال العمر، خطاب ما بعد *الكولونيالية في أعمال الطاهر وطار وتشينوا أتشيبي الروائية، دراسة مقارنة*، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية، 2015، ص141.

7 . ليلى الصابوني، *الأشياء تتداعى*، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 38_39، سورية، 1 يناير، 1984، ص242.

(8) . عبد الله إبراهيم، *المحاورات السَّرديَّة*، بيروت: الدار العربية للعلوم، ط1، 2011، ص166.

(9). الرواية، ص191_195.

(10). الرواية: ص193_194.

([11]). الرواية، ص246_262.

([12]). روجيه جارودي، *حفّارو القبور: الحضارة الّتي تحتضر للإنسانيّة قبرها*، ترجمة عزّة صبحي، القاهرة: دار الشروق، ط3، 2002، ص22.

([13]). الرواية، ص242_243.

([14]). الرواية، ص200_ 203.

([15]). الرواية، ص233.

([16]). **see**: **Abdullah AL–Dagamseh**, ***Cultural Critique in Selected Works of Chinua Achebe***, **Master Thesis**, **Yarmouk University**, **2003**, **pag**:**42_46**.

([17]). الرواية: ص208_209.

([18]). الرواية: ص212.

([19]).**Tahrir Hamdi**, ***Discourses of Domination and Liberation in Selected Works by Lucie Duff Gordon, Joseph Conrad and Chinua Achebe,*** **pag**: **56**.

([20]). الرواية، ص2012_213.

([21]). الرواية، ص238_239.

([22]). الرواية: ص256

([23]).**Natalie Yegenian**, ***Patterns of Heroes in the Novels of Chinua Achebe***, **Master Thesis**, **University of Jordan**, **1999**, **pag**: **23**.

([24]) الرواية: ص245.

([25]). .**Natalie Yegenian**, ***Patterns of Heroes in the Novels of Chinua Achebe*** :**Pag** .24

([26]). الرواية: ص273_274.